

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 15 (2011) : 214 - 222
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

تحدي الإنسان للرمال وتطويع الصحراء للعمران البشري

صحراء وادي سوف نموذجا

علي غنابزية
المركز الجامعي الوادي

مقدمة

يعيش الإنسان في الصحراء ظروفا صعبة التحمل، ويواجه مصاعب ومتاعب جمة، وعلى رأسها الوسط الطبيعي القاسي، والمناخ الجاف القاتل، وبعد المسافة وتوغل الأراضي في مسالك مجهولة العواقب، تغلب عليها الشدائد والمحن، وتتوجس النفس منها المخاوف والمحاذير ولاسيما رمال العرق الشرقي الكبير في الجنوب الجزائري؛ وتستهدف هذه الدراسات رصد مخاطر الصحراء، وتحدد صعوبة تأقلم الإنسان مع طبيعتها، وكيف انعكست مظاهرها الطبيعية سلبا على البشر في الحوادث التاريخية المتعددة، وفي المقابل يستهدف، مدى قدرة الإنسان – وخصوصا في صحراء وادي سوف – على تحدي كثبان الرمال المتراكمة، والجفاف والتصحر، وكيف تخطي عوائق البيئة الشاقة، وكتشف أسباب العيش، وطور العمران البشري الذي كان محدودا في عهد بربر زناتة، واقتصر على الحياة الرعوية، كمصدر وحيد للاقتصاد.

وكان تطور المجتمع على يد المهاجرين العرب بداية من القرن التاسع الهجري، عندما توفر العنصر الاقتصادي الجديد، وتمثل في زراعة النخيل، التي غرست في وهاد سحيقة، قرب الماء، وهي الأحواض العملاقة التي تدعى الغيطان، وتعتبر ظاهرة فريدة من نوعها في هذا العالم الفسيح؛ وتم تصنيفها ضمن التراث العالمي من قبل منظمة اليونسكو، ولكن الرمال بقيت تحيط بتلك الغيطان من كل جانب، وتطلب ذلك جهدا معتبرا، وتفكيرا عميقا، وتجارب ناجحة، ومكنها التطور الاقتصادي (زراعة النخيل) من جلب أعدادا كبيرة من المهاجرين، وتوسعت الحركة العمرانية في مدة قصيرة، واستمر التحدي بمقاومة يومية للرمال التي تهدد الغواطين (المزارع) بالموت المحتم، وحينئذ تفتق الفكر المحلي على شتى الوسائل والأساليب، باستغلال الظواهر الطبيعية، وتطويع الرياح، وتسخير قوتها في مكافحة الرمال، واستغلال الإمكانيات الشعبية لحماية

الثروة الأساسية التي ساهمت في التوسع العمراني في هذا الإقليم المنعزل عن المدنية لعدة قرون، ويومئذ بدأ يتنسم عبير الحضارة، وهو يشبه بقية الواحات الصحراوية المجاورة في وادي ريغ والزيبان وبلاد الجريد، ويتقاطع معها في الظروف المشابهة، ولكل وسط طبيعي خصوصيته، ولكن في نهاية الأمر فالإنسان تحدى الطبيعة، ووفر أساسيات المعيشة، وعمر الصحراء وحولها إلى بلدان عامرة بالخيرات.

1) مخاطر الرمال في صحراء العرق الشرقي الكبير:

تمثل الصحراء المظهر الأساسي في حياة العرب، والمحيط الحيوي الذي طبع حياتهم، وأثر على أدبهم ولغة خطابهم التي ارتسمت فيها معاناتهم في الصحراء، فعرفوا الصحراء – في معاجم اللغة – بالفضاء الشاسع الذي ينعدم فيه الماء، ويفتقر إلى النبات، ويفتقد أدنى شروط الحياة، وتعددت المعاني المعبرة عنها، وبلغت نحو الأربعين اسما، فسميت القفر، وتعني الأرض الخالية من الإنسان والحياة، ومثلها الفلاة والبيداء والبرية، والفيافي، كما أطلق عليها أسماء أخرى تدلل على المخاطر الكبرى التي تؤول إلى فقدان الإنسان لحياته، ويكون الموت المحتم مصير المجتاز لرمالها، والذي يتمكن من عبورها بسلام يكون من الفائزين، وحينئذ أطلقوا عليها اسم المفازة.

وتعتبر الرمال الصحراوية عائقا متعدد المخاطر في العرق الشرقي، ولاسيما منطقة وادي سوف التي تمتد من غدامس الليبية وحتى بلاد الزاب الشمالية، وأفاضت الكتب الجغرافية والتاريخية القديمة، والدراسات الحديثة، وفصلت تلك المخاطر ومنها:

أ) الرمال وقساوة الطبيعة: تتأثر الأراضي الصحراوية بحرارة الشمس الشديدة، فيصعب المرور فوق الرمال الملتهبة، وقد عبر الباحث الفرنسي موتيلانسكي في رحلته سنة **1903**، أثناء عبوره إلى وادي سوف قادما إليها من تقرت، فقال: "كانت الحرارة قد أخذت تشتد مما جعل المشي على كثبان الرمال مؤلما"(1) وتسمى تلك الحالة بالرمضاء؛ وكلما كانت بهذه الصفة تغوص فيها الأقدام، وتعرقل المسير، مما يجعل سقوط المطر النادر مثبتا للتربة الرخوة إلى وقت يسير، وقد أشار إليها العياشي في ماء الموائد، في القرن **17**م "ثم نزلنا بموضع آخر يقال له العلنداوي فأصابنا مطر كثير لبد التراب فاستطعنا سلوكه حينئذ، وإني لأتعجب ممن يستسهل المرور فيها على طول السنين إذ هي ذات رمل كثير يضرب به المثل..." (2)

والرمال الصحراوية في معظمها فقيرة من المواد العضوية، وقليلة الخصوبة، ولا تصلح للزراعة إلا بتوفير الإمكانيات المعتبرة، فضلا عن نفوذيتها، فتغور مياها في مسافات سحيقة، كما أن الجفاف كان عامل طرد للسكان، فلا يقصدها إلا المضطر ليتخذها مأمنا، لأن الأمن من الطبيعة أهون عنده من الأمن من البشر، وحينئذ أتخذها بعض اللاجئين مسكنا طلبا للأمن

والسلامة رغم الشدة وصعوبة المعيشة.

ب) الرمال وصعوبة التنقل: إن انتشار الرمال في فجاج الصحراء، وانعدام المعالم المادية الظاهرة، أحد المخاطر المحدقة بمن يسافر في أعماقها بدون دليل عارف بمسالكها، ولاسيما البدوي الذي خبر أسرارها، وحنكته التجارب فاتخذ الطرق السليمة لاجتيازها، وسخر حركة الشمس والقمر للاهتداء بهما بالليل والنهار، واتخذ معالم ثابتة في طرقها الرملية، يقتفي أثرها، كالآبار، والعلامات التي شيدتها الهندسة العسكرية الفرنسية في نواحي وادي سوف، وتدعى "القماير" وأشار إليها موتيلانسكي في طريقه بين تقرت والوادي: "...والطريق المسلوك لا دليل عليه سوى الآثار التي تتركها على الرمال حوافر الحيوانات المستعملة، أما الاتجاه العام للطريق فيدل عليه أهرامات كبيرة تسمى قماير، بنيت بالجبس الشائع في المنطقة من قبل السلطات العسكرية على قمم الكثبان الرملية الأكثر علوا، كما تدل عليه أعمدة الخطوط البرقية(التلغرافية) التي يراها الرائي على مرأى البصر كأنها صف متراص من الجنود الشاكين السلاح..." [(3)]

وأخطر ما يلاقيه المسافر في مجاهل الصحراء، العطش القاتل لفقدان الماء، والرياح العاتية التي تدفن الجثث،[(4)] ويضيع خبر أصحابها، ولا تكشف إلا بعد أزمنة بعيدة بعد هبوب الرياح، ووقوف الإنسان على آثارها، وخصوصا الهياكل العظمية البشرية، وبعض أدوات الموتى، ووجدت بعض المواقع الفاصلة بين وادي سوف وغدامس الليبية، تسمى "قبور الخدم" و"غرد الوصيف" وهي تسميات لتلك الكثبان الرملية التي شهدت عبور قوافل تحمل العبيد أثناء ازدهار الحركة التجارية بين البلدين، ومات أفراد القافلة بأكملهم عطشا في تلك النواحي، وهم أولاد قداد من قبيلة الربايع وعددهم **08** تجار، ومعهم **11** عبدا زنجيا، فأطلق على المكان اسم "زمالة قداد".[(5)]

ج) المصير المجهول لعابر الصحراء: كان الاعتقاد السائد عند القدامى، أن الصحراء موحشة قاتلة، مخيفة مفزعة، وتحدث هيرودوت عن قبيلة البسيلي من الليبيين التي انقرضت بسبب الجفاف، عند خروجهم لمحاربة ريح الجنوب، فهبت عليهم عاصفة رملية، فقضت عليهم ولم تبق منهم أحدا، [(6)] وعندما قصد الغزاة أو الفاتحين بلاد المغرب، اصطدموا برمال الصحراء، وخشوا المغامرة في قفارها الممتدة، وحينئذ نسجت الأساطير، وتعددت الخرافات الملفقة عن الكوارث التي تسببت فيها الصحراء، مثلما ذُكر عن الملك اليمني ياسر بن عمرو الملقب بياسر أنعم الذي ملك ما بين (**250–275**م) والذي خرج غازيا بلاد المغرب، فلما بلغ وادي الرمل الجاري، ووجه جيشه الذي توغل في الأراضي الرملية، هلكوا جميعا، ولم يرجع منهم احد، فأمر الملك أن يقام صنم من النحاس وكتب عليه بالخط المسند، هذا صنمك لياسر أنعم الحميري ليس وراءه مذهب، فلا يتكلفن أحد ذلك فيعطب، ورجع إلى بلاده.[(7)] وحينئذ تعددت الحوادث التي تناقلها المؤرخون، ومعظمها تخويف من المصير المجهول وراء وادي سوف وغيرها من

المناطق المجاورة، وذكروا أن وراء بلاد الجريد التونسية رمال قاتلة، ولا يقدر احد دخولها،(8) مثلما ذكر البكري (ت487هـ) فقال: "ولا يعرف وراء قسطيلية عمران ولا حيوان إلا الفنك إنما هي رمال وأرضون سواخة وهم يخبرون أن قوما أرادوا معرفة ما وراء بلادهم فاستعدوا الأزواد وذهبوا في تلك الرمال أياما فلم يروا أثرا لعمران وهلك أكثرهم في تلك الرمال"(9) وعندما لاحق السلطان المريني قبيلة بني رياح، لاذوا بالفرار جنوب بسكرة التي كانت تحت حكم بني مزني، فأعانوه على ملاحقة العرب المارقين،(10) ولكن جيشه توقف على مشارف الصحراء المحاذية لوادي سوف ، بسبب رواج المخاوف المشهورة لأنهم يرون "...أنه في حكم الصحاري المتخاطفة والمدامي المترامية المتقاذفة، وأن الجيوش العظيمة. إذا أمتها خيف عليها من نفاد الأزواد، والإخلال بمضامين الاستعداد. وانضمام العدو المعتاد للأصحار..."(11) ولكن تلك المخاطر تبددت، والمخاوف زالت، وحل محلها الاستقرار، وعمرت البلاد وعم الازدهار.

2) زراعة النخيل وتحدي الرمال في صحراء وادي سوف:

كانت وادي سوف وحتى القرن 15م محدودة السكان، ضعيفة العمران، ترتكز مقوماتها الاقتصادية على الرعي، ويتنقلون في الأطراف كما أشار العدواني في تاريخه "...وبقينا في البلاد، الشتاء بأرض النازية، والربيع بواد ريغ، والصيف بالزاب، والخريف بأرض الجريد وهكذا..." (12) وتجلب المواد الضرورية (التمر والحبوب والصوف) من تلك الأقاليم المجاورة كما أشار العدواني: "...ونحن نزلنا أرضا خالية بين ثلاثة أوطان: الزاب للطعام، والجريد للتمر، ووادي ريغ للصوف."(13) وهذا جعل الرجل الصالح سيدي مستور يفكر في ربط وادي سوف بمورد رئيسي، فاهتدى إلى زراعة النخيل، ودعا أبناءه للقيام بتلك المهمة الصعبة، وشرع فيها في النصف الأول من القرن 16م.(14)

أ) زراعة النخيل: تغطي الرمال العميقة وجه الأرض في وادي سوف ، ويوجد الماء على عشرات الأمتار، ويستحيل زراعة النخيل في سطح الأرض، لأن عملية السقي شاقة فضلا عن الرمال التي تهدد المزروعات بالدفن، ولذا فكر الفرد في حفر الأرض لتكون النخلة قريبة من الماء ويكفيه ذلك مؤونة سقيها باستمرار لأن عروقها تشرب مباشرة من الأعماق. وبهذا تتميز منطقة وادي سوف عن بقية الواحات الصحراوية، بزراعة النخيل، داخل أحواض عميقة، هي حقول الزراعة الأساسية، وتمثل ظاهرة فريدة من نوعها عالميا، وعلى الإطلاق، ويلاقي الفلاح محنة في رعايتها وصيانة مزروعاتها من التلف، وتكلفه العمل الفعال خلال حياته الأساسية؛ وتلك الأحواض ذات امتدادات واسعة تبلغ مئات الأمتار طولا وعرضا ، وتصل أعماقها إلى 16مترا، ولا يتمكن الفلاح في وادي سوف من حفرها إلا بمزيد من الصبر واستخدام الذكاء والفطنة ، وتسمى تلك الحقول الزراعية بأسماء محلية ، أهمها :

– الغوط: وتجمع عند السكان بلفظ غيطان أو غواطين، وتطلق عادة على البساتين في منطقة الجر الرملي ضمن نطاق العرق أو منطقة الرمال الدقيقة.

– الهود: ويجمع بلفظ (أهواد)، ويكون في منطقة الصحن الرملية، ضمن نطاق الأرض الرملية الحصوية أو وهي الأكثر صلابة وتشبه الحمادة في بعض ملامحها.[15]

وحينئذ تطورت زراعة النخيل بشكل ملفت للنظر في القرن 16م، بداية من غوط سيدي مستور بمدينة الوادي[16]، عندما أمر الرجل الصالح سيدي مستور أبناءه بجلب فسائل النخيل من غدامس وبلاد الجريد، وشرع في غرسها بأول غوط قرب حي أولاد أحمد بالوادي، في حدود سنة 946هـ/1540م. وتطورت إلى أعداد كثيرة من الغيطان يصل عدد نخيل الغوط الفتي منها إلى 20 نخلة، ولا يتجاوز 300 نخلة في الغوط القديم[17].

ويشرع الفلاح في عملية غرس فسائل النخل . وتدعى الحشان[18] . بالغوط، على مستوى يبعد عن الماء بحوالي مترين تقريبا،[19] ويسهر الفلاح على الغرسة بسقيها في الأيام الأولى، ولما تمتد جذورها عشرات السنتيمترات، يتركها تحت رعاية الله مباشرة، في بقية عمرها دون أن يبذل أي عناء في سقيها ، وإنما يبذل جهده في حمايتها المستمرة من الرمال الزاحفة .

ب) رفع الرمال ومقاومتها: يستغرق عمل الفلاح في وادي سوف جل النهار، ويبدأ بعد منتصف الليل ويستمر سحابة اليوم، وإلى وقت حلول الظلام، وخلاله لا يتوقف إلا في فترة قصيرة بعد الزوال، بينما في بقية يومه، فهو في عمل دؤوب ، ونشاط متعدد، يتوزع بين رفع الرمال، ومقاومة الكثبان الزاحفة، ورعاية أشجار النخيل.

– رفع الرمال: ويقوم بها الرَّمَّال؛ وهو الشخص الذي يخوض معركة حقيقية، تتطلب استخدام الذكاء واستغلال الحنكة والتجربة، ومتابعة حركة الرياح واتجاهاتها، لتساعده على حمل الرمال ودفعها عن النخيل، إلى "الملوح" خارج الغوط لمسافة تتراوح ما بين 80 إلى 200 متر،[20] ويحمل "الرَّمال" التراب على كتفه، في قفة ثقيلة الوزن لها حبل (شريط) يحز في الجلد حتى يسيل منه الدم[21]، وهو يحمل نحو 50 كيلوغراما من الرمال التي جلبتها قوة الرياح، ويستطيع الرمال الواحد حمل نحو 50 قفة[22]، كما يرفع الرمال التراب بواسطة قفاف متعددة الأشكال؛ كما يخضع رفع الرمل إلى عملية "خط الرقة" ويتم تحديدها من طرف" القدَّام " وهو الفلاح الذي يقيس المساحة المراد رفع رمالها، وتحسب "بالقد"، وهو حجم من الرمل يختلف حسابه حسب جهات الوادي، ويتراوح القد الواحد ما بين 1800–2200 قفة، وحينئذ يرفع الرمل بواسطة الزنبيل الذي يحمل فوق الأحمرة أو البغال، وترمى الرمال المرفوعة خارج الغوط. [23] كما ينتظم "الرَّمالة" في جماعات تتكون من 15 رجلا، وتصل إلى 50 رمالا، وتدعى الجماعة باسم جماعة "الربعة" أو "الدور" ولهم رئيس يدعى "الكبير"، وهو الذي يوقظ جماعته بعد منتصف

الليل، ويقودهم إلى العمل – في رفع الرمال من الغيطان – الذي يستمر إلى وقت الشروق، ومهمته الأساسية هي تنظيم العمل، ومراقبة الحساب.[24]

– مقاومة الرمال: وتتطلب أعمالا ضخمة ويومية، ولا تنقطع في أي جزء من أيام السنة، وتستوعب جل وقت الفلاح، الذي يكافح الرمال ويصدها عن مزارعه، وأحواضه العملاقة، وفيها حياة النخيل، ويشرف عليها "الزرّاب" وهو الفلاح المختص في معرفة حركة الرياح وله خبرة في معرفة المكان المناسب لإقامة الزرب النافع، وهي الحزامات أو الحواجز المقامة من جريد النخل تغرز بالرمل فوق الكثبان، وتحيط بالغوط من الخارج ، وتعمل على مكافحة وتوجيه الرياح، ولكل غوط طريقته الخاصة في إقامتها، وتتحول الزروب عدة مرات، وتتجدد في كل سنة أو سنتين. ويترأس هذا العمل الزراب الذي يقوم بتصفيف الجريد وربطه بدقة، وغالبا يتم إنجاز الزرب الأساسي، وخلفه آخر ثانوي للتمكن من إعاقة الرمال المتقدمة أكثر، وتنجز في الشتاء، أو في الربيع (شهر مارس) فنلاحظ ذلك عند أولاد أسعود الذين ينجزون الزرب في الجهة الشرقية للغوط لإيقاف تأثير رياح "البحري"، كما توضع أخرى في الجهة الجنوبية الغربية لمنع الرياح الآتية من جهتها، أما في الصيف فلا يخشى من رياح الشرق، وفي الخريف توضع في جهة الشمال، وعموما فإن الجهة الجنوبية الغربية تحافظ على الزروب لدوام هبوب الرياح فيها. ويمكن وضع الحواجز الحجرية في مكان الزروب عند فقدان الجريد، وهي أكداس من الحجارة الجافة ، وتكون متوفرة عند الفلاحين، ويمكن تغيير أماكنها عند الزروب ويتراوح علوها ما بين 25 إلى 50 سنتيمترا.[25]

3) تطويع صحراء وادي سوف للعمران البشري:

ظلت منطقة وادي سوف كغيرها من المناطق الصحراوية النائية، تستقطب بعض الأفراد والجماعات المحدودة العدد التي تلجا إليها، وتستقر في أطرافها طلبا للأمان والسكينة، وتأنس بطبيعتها الرملية القاسية لأن حماية الذات من العدو تستحق التضحية، وحينئذ تمارس تلك الفئات الرعي، وتعيش في شظف من العيش، وبقي العمران مقتصرا على قرى قليلة، والتجمع السكاني مركزا في ثلاث مواطن معروفة، وهي الجردانية بالشمال، وجلهمة في الجنوب الغربي، وتكسبت القديمة في الجنوب، وهي المركز الأساسي لوادي سوف، ولكن القرن السادس عشر فتح بابا للتحول، بظهور العامل الاقتصادي الجديد الذي ساهم في التطور العمراني، واستطاع الإنسان أن يطوع الطبيعة للسكن والاستقرار:

أ) توسع زراعة النخيل وانتشارها: دأب الإنسان في وادي سوف على المضي قدما والانتشار في الأرض، واختبار الطبيعة، وبدا التنافس بين الناس في إنجاز الغواطين في مختلف الاتجاهات ولاسيما في الجنوب، لأنها البداية، وتطلب ذلك جهودا مضنية، ولكنها أتت أكلها، وبعد قرن من الزمان، تحولت المنطقة إلى جر كامل من النخيل الأخضر يلفت انتباه المسافر

لأول وهلة مثلما شاهده الرحالة العياشي "...وجدت سوف خطا من نخيل مستعرضا في وسط الرمل به بلاد عديدة وماؤه كثير طيب قريب من وجه الأرض..." (26)

ب) توسع العمران وتطور القرى والمدن: كان الإنسان في وادي سوف يبحث عن مكان جيد صالح لانجاز بستان للنخيل (غوط)، حين تكون الرمال قليلة، والمياه قريبة من السطح، وخاصة في المنطقة الشمالية، والشمالية الغربية؛ وبعد مدة من انجاز هذا الغوط، تغادر العائلات مركزها الأصلي في المدينة أو القرية وتستقر في الغوط الجديد، وتبني مسكنها ومسجدها، وشيئا فشيئا يتحول المركز إلى قرية صغيرة.(27) كما ساعد على التوسع، النمو الديمغرافي الكبير، وتضخم المراكز السكانية والمدن والقرى ، فضلا عن تعدد أفراد العائلات في بيت واحد، فكان الخروج إلى الصحراء لإنجاز غوط جديد أحد الحلول السهلة التي نتج عنها توسعا عمرانيا كبيرا.

ج) مساهمة المهاجرين في التوسع العمراني: ازداد نشاط الهجرة نحو سوف خلال لقرن السادس عشر، لأن العامل الاقتصادي شجع على الهجرة ولاسيما القبائل البدوية التي كانت في الأقاليم المجاورة أو تتنقل فريبا من إقليم وادي سوف، مثل قبيلة الفرجان والربايع والشعانبة وغيرها، وبدأت تنجز المزارع، وتتوزع حياتها بين المواسم في الرعي وخصوصا في الشتاء والربيع، والاستقرار بين الغيطان في موسم جني التمور، وهذا دفع بعضها لبناء المنازل والأكواخ؛ كما أن سكان الحضر كانت لهم رحلتهم الموسمية بقضاء فصل الصيف في الغيطان، فأهل كوينين في ورماس، وأهل الوادي في أميه باهي ووزيتن، وقمار في غمرة، وهذا لقضاء ليل منعش في الهواء البارد، والابتعاد عن ضغط المدينة، ووجود الماء العذب، واستغلال ذلك في سقي الحرث والتمتع بالخضر، ويستمر ذلك إلى بداية الخريف لجني البسر. وكل ذلك ساهم في تضخم تلك القرى وتوسع العمران في وادي سوف وتحولت إلى قطب اقتصادي في الجنوب الشرقي.

– الخاتمة:

كانت طبيعة الصحراء في العرق الشرقي الكبير، موغلة في الوحشية، محاطة بالفزع والخوف لقساوة مناخها، وشدة حرارتها التي ترهق النفوس والأبدان، وقلة مياهها التي تقتل المسافرين بسبب العطش، وتقف رمالها عائقا كبيرا، تكبح حركة الإنسان، وتشل حياته في مختلف الأحيان، فتهيج الرياح العاتية، وثير حبات الرمال، وتؤذي الأعين، وتتراكم فوق المباني ووسط الطرقات، وتدفن المزروعات، وتغطي قوافل بأكملها في مجاهل الصحراء، ولا تكتشف جثث أصحابها إلا عرضا، وقد أحاطت تلك الظروف تاريخيا بمنطقة وادي سوف قديما وما زال بعضها يتفاعل حديثا، وعموما فالإنسان تجاوزها بالعمل والمثابرة، وتعدى مخاطرها بالجد والنشاط، وتحداها بالبناء والتعمير.

وكانت زراعة النخيل بوادي سوف من أكبر التحديات في تاريخ البشرية، وتمت في أرض

رملية، تغور المياه فيها إلى أعماق سحيقة تصل إلى 16 مترا، ورغم ذلك استطاع الإنسان السوفي أن يحفر الأحواض العملاقة(الغيطان) ويرفع أحجاما ضخمة من الرمال التي تضاهي رمال قناة السوس، وفاقت متاعبه، جهود بناء الأهرامات الفرعونية، لأن غيطان وادي سوف بمثابة أهرامات مقعرة، تحولت أعماقها إلى واحات تزخر بالزروع والثمار اليانعة، والنخيل الباسقة ذات الطلع النضيد، وصار أحسن رزق للعباد.

ولكن التحدي الكبير الذي استمر قرونا، هو حماية الأحواض (الغيطان) التي بلغ عددها سنة 2008 نحو 1854 غوط، ومليون ونصف نخلة، بمكافحة الرمال اليومية، وتجنيبها الدفن الحتمي، وحفظها من الموت المتربص، وتم ذلك باستعمال الجهد العضلي والاستعانة بالحيوان في رفع الركامات الرملية؛ لأن أغلب سكان وادي سوف يعتمدون على النخلة، فهي قاعدة معيشتهم، وركيزة أعمالهم اليومية، والذي يجعل غزارة الإنتاج، والاهتمام بالنخيل أمرا أساسيا لا يمكن التهاون فيه، لأن العمل داخل الغيطان يملك عليهم أنفسهم، ويطبع برنامج حياتهم، وتشترك الأسرة بأكملها في رعاية النخلة وتطويرها.

إن الازدهار الزراعي، وتوسع عمليات زراعة النخيل في أرجاء وادي سوف، مثل أكبر انجاز حضاري، ساعد في التوسع العمراني، وطور المواقع السكانية، فنشأت المدن الجديدة والأرياف العديدة، والحواضر الاقتصادية التي استقطبت المهاجرين من مختلف النواحي طلبا للحياة المستقرة الكريمة.

الهوامش:

1) أبو القاسم سعد الله، "مهمة موتيلانسكي في سوف لدراسة اللهجة الغدامسية سنة 1903"، مجلة الثقافة، الجزائر، العدد 107 – 108، مارس– أفريل 1995، ص 103.

2) العياشي: ماء الموائد، نقلا عن إبراهيم العوامر، الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، (تع الجيلاني العوامر)، تونس، الدار التونسية للنشر والشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائرية، 1977، ص 47.

3) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص ص 103–104.

4) Maréchal Jubeau: "La Mort de Soif du Mehariste Hamou ben Mabrouk" (BLS) , N: 16, Mars 1954.

5) Roger Leselle : " Les Noirs du Souf " Supplément, (B.L.S) S.D.

6) أنظر: تاريخ هيرودوت، ترجمة عبد الاله الملاح، مراجعة احمد العساف، حمد بن صراي، نشر المجمع الثقافي، شركة أبو ضبي للطباعة والنشر، الإمارات العربية المتحدة، 2001، ص 361.

7) أنظر: ابن قتيبة: المعارف، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، 2003، ص 347. عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ديوان المطبوعات الجامعية، ط7، الجزائر، 1994، ج1، ص 116.

8) ابن الشماع: الأدلة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تح وتق الطاهر بن محمد اليعموري، الدار العربية للكتاب، طرابلس، 1984، ص 33.

9) البكري: المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (ب ت)، ص 49.

10) ابن الحاج النميري: فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، تح محمد ابن شقرون، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1990، ص ص 482-483.

11) نفسه، ص ص 453-454.

12) محمد العدواني، تاريخ العدواني، (تح أبو القاسم سعد الله)، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1996، ص 108.

13) نفسه، ص 147.

14) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص ص 183-184.

15) Voir: G.H. Bousquet :" Du Droit Coutumier et de ses Rapports avec la Vie Economique et la Technique Agricole dans le Souf" , Travaux de L'Institut de Recherches Saharienne(T.I.R.S) T12, Université d'Alger; 1954,p:72.

16) إبراهيم العوامر، المرجع السابق ، ص ص 183-.184

17) G.H. Bousquet ,Op-Cit ,p 72.

18) الحشان: مفردها حشانة ، وهي غرسة فتية، يتراوح عمرها مابين 3 إلى 6 سنوات، ويشرع في زراعتها في الربيع.

19) C. Cauvet: "Culture de Palmier au Souf", Revue Africaine, 1 trimestre 1914, p 37.

20) Ahmed Nadjah, le Souf des Oasis, Alger: Edition la maison des livres, 197, p62 .

21) لقاء مع الفلاح الصادق صخري في حي المصاعبة يوم السبت 2005/08/06.

22) C. Cauvet :Culture de Palmier, Op- Cit , p 44.

23) Voir: G.H. Bousquet : Du Droit Coutumier, Op- Cit , p37.
C.Cauvet :Culture de Palmier, Op- Cit, p45.

24) Voir: G.H. Bousquet : Du Droit Coutumier, Op- Cit , p78.

25) Voir: G.H. Bousquet : Du Droit Coutumier, Op- Cit , p37.
C.Cauvet, Op –Cit,p 45-47.

26) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 195-196.

27) Rapport nommé " Rubrique " I I I Habitat de 'Annexe d'El-Oued , D.D.M.E :
(S.D) , P6 .

28) Bataillon, Claude, Le Souf Etude de géographie humaine, Diplôme d'études Supérieures de Université d'Alger (M.N). institut de recherches Sahariennes, 1953, p44.